قضية شهيرة

لافارج (مخطوطات القضاء)

هذا فصل من فصول القضاء الفرنسي [illegible] الاعوام عليه حوادث ذكريات اولئك الذين يحكمون بين الناس والمخولين تطبيق القانون واحكامه . وحوادث في تاريخ الجريمة ما زالت ظروفه الغامضة مادة موضوعا للتأمل والاعتبار

ومن بين تلك الحوادث قضية مدام لافارج : في اوائل سنة ١٨٤٠ ثارت في جميع فرنسا وفي دوائرها العالية ضجة كبيرة حول قضية جنائية قدمت الى محكمة جنايات كوريز وكان الباعث على تلك الضجة [illegible] التهمة [illegible] ومركز المتهمة الاجتماعي وجمالها وشبابها [illegible] وما احاط ظروف الجناية من غموض [illegible]

والمتهمة في تلك القضية الشهيرة هي ماري كابيل ارملة شارل بوش لافارج . وموضوع التهمة هو ان ماري كابيل — مدام لافارج — قتلت زوجها بالسم وسرقت جواهر احدى صديقاتها الآنسة نيكولاي مدام دي ليو

وملخص ظروف القضية طبقا لما ورد في محاضر التحقيق هو ان المسيو شارل بوش لافارج صاحب مصنع الحديد في جلانديه (مقاطعة كوريز) ذهب في نهاية سنة ١٨٣٩ الى باريس ليبحث عن زوجة تؤنس [illegible] وحشته وتصلح بثروتها ماليته المضطربة . فوفق بمساعدة احدى وكلاء الزواج الى التعرف بالآنسة ماري فورتونيه كابيل ، وهي فتاة يتيمة حفيدة [illegible] الذي كان ضابطاً صغيراً في الحرس الامبراطوري وثروة قدرها ثمانون الف فرنك .

وكان لافارج في الثامنة والعشرين من عمره . قبيح الطلعة . وكانت ماري كابيل في الرابعة والعشرين حسناء ، خلابة الملامح والصفات . فتعارفا بسرعة . ولم تمض اسابيع حتى عقدا زواجهما . وعاد لافارج بزوجته الحسناء الفتية الى داره في جلانديه

بيد ان التباين كان عظيما في الخلال والتربية بين الباريزية الحسناء والقروي الجاف فما لبث لافارج ان ظهر في ثوبه الحقيقي من الغلظة والخشونة . ذلك الثوب الذي اخفيت

معه كما يعترف الاتهام [illegible] الحدة [illegible] في سبيل اقترانه بها

يقول الاتهام [illegible] لافارج [illegible] منذ اللحظة الاولى لخطبة زوجها [illegible] وحيدة من عظيمة حياة وصلت الى [illegible] التي [illegible] مرحلة [illegible] دار [illegible] . مقفرة خربة . ورمتها في ذلك المقام الموحش [illegible] رجل [illegible] بعدها [illegible] اذ شعرت [illegible] .

ومع من [illegible] كتبت [illegible] جلانديه – في ١٥ اغسطس خطاباً الى زوجها يقول عنه المدعي العمومي انه [illegible] تعرب فيه عن احتقارها [illegible] بالخداع . [illegible] سترتكب جرماً اذا لم [illegible] من [illegible] وترجوه ان [illegible] الى [illegible] ترك [illegible]

وهو خطاب غريب [illegible] في [illegible] الاتهام عن ما كان يعتوره من جوانبها من عوامل الحيرة والحنق . [illegible] الاتهام [illegible] البعض الآخر صدوره من فتاة [illegible] فقد [illegible] .

يقول الاتهام [illegible] من تلك الساعة [illegible] مدام لافارج ان تتخلص بأية وسيلة من [illegible] مدهشة [illegible] في اواخر اكتوبر مرض [illegible] على قول الاتهام [illegible] وكتبت وصية توصي فيها [illegible] من [illegible] بثروته الى زوجها اذا [illegible] .

وبعد ذلك [illegible] لافارج [illegible] باريس يسعى في الحصول على [illegible] واقتراض الاموال اللازمة لاستغلال هذا الاختراع . وفي اثناء غيبته [illegible] عدة خطابات ودية رقيقة

وفي ١٥ ديسمبر ارسلت مدام لافارج [illegible] ثلاثين جرامن الزرنيخ من صيدلية [illegible]

وفي ١٨ ديسمبر [illegible] لافارج بواسطة البريد صندوقاً [illegible] ارسلته اليه

ومعه فيه ... ومس ... وضعه بحضور خادم المدفن . واكل جزءاً من الطعام ... في اليوم التالي ...

وفي ٣ يناير سنة ١٨٤٠ عاد الى جلانديه مريضاً كما ورد في رسالته

وفي الخامس من يناير بعثت مدام لافارج في شراء الزرنيخ ثانية ومضت في شرائه مرة ثالثة في ...

وفي الحادي عشر قدمت الاسرة ذات الصورة الى جلانديه ... ضعف ... فرأتها تعد للاسرة ... مسحوقاً ابيض في قدح من اللبن وتعطي منه لزوجها . وقد اخذ هذا القدح في ... الى الصيدلي ... فقرر انه يحتوي على اثر من الزرنيخ ... في ... المسحوق ... البعض والآخر

وفي الرابع عشر من يناير سنة ١٨٤٠ ... في فراش الآلام فقالت ... امه ... مسموماً ... ايام حتى امرت ... مدام لافارج التي بقيت في جلانديه رغم من نصح الاصدقاء ...

(٢)

وكانت مدام لافارج قد ... ذات مرة ... فتى ... هيأة عطف في ... وصاحبه وتقدمه . ولكن ... التي ... في عهد الامبراطورية ... من ... تطلب اليه ان يدافع عنها

... سيدي ... مرة واحدة ... ويمكنك ان ...

وقد كانت ... حرية ... الى الاسماء ... ...

فقبل لاشو ان يدافع عنها . وكانت اسرتها في باريس قد عهدت بتلك المهمة الى محام ... الاستاذ ... حينئذ ثم ... ان ينضم محاميها التي في الدفاع عنها ... ومع ان لاشو لم ... الا بتهمة السرقة فان اسمه ... منذ تلك ... القضية الشهيرة التي كانت مبدأ شهرته الواسعة .

ان المسيو لافارج لم ير سوى الانتحار وسيلة للتخلص من الازمات المالية التي توالت عليه ومن عسف الدائنين .

واما الخطأ في تعرض لاستعمالة لا الاتهام ولا الدفاع . بيد ان ليس من المستحيل ان يكون المسيو لافارج قد ذهب ضحية حادث شنيع . وان تكون خادمته كيانتين او خادمه الفرد ، او مدام لافارج نفسها قد وضعت له الزرنيخ عن خطأ مكان مكاربونات الصودا او الصمغ اللين .

واما الفرض الثالث وهو حدوث جريمة فان الادلة على رجحانه تتلخص فيما يأتي :

اولاً — شراء مدام لافارج زرنيخاً ثلاث مرات متوالية . وقد ردت مدام لافارج على هذا الدليل بأن مقامها في جلانديه كان مرتعاً للجرذان وكانت تشاهد الجرذان بكثرة . وتقضم الثياب والمؤن وتمنع بضجيجها مدام لافارج من النوم ليلاً . فقد ذهبت الى ان الزرنيخ كان يقصد به اهلاك هذه الحشرات المؤذية . هذا الى ان الدفاع يعلق اهمية كبرى على الطريقة التي اشترى بها السم وما اقترن بها من العلانية والجهر . فقد اشترت مدام لافارج الدفعة الاولى منه بخطاب ارسلته الى صيدلي . والثانية بتذكرة كتبها الدكتور باردون . والثالثة بواسطة دنى عامل زوجها الامين الذي طلبت اليه ان يستحضر لها زرنيخاً او مبيدة الجرذان . فهل تدل هذه العلانية لتصرف مجرمة مسممة ؟

غير ان الدفاع من جهة اخرى لم يوضح كيف ان المبيدة التي ضبطت اثناء التحقيق لم يكن بها اثر الزرنيخ . وكيف ان النيابة عثرت اثناء التفتيش على علبة من مكاربونات الصودا مدفونة في الحديقة تشبه علبة الزرنيخ التي استحضرها دنى من صيدلية وزيرش ثم ما الذي فعلته مدام لافارج بمقادير الزرنيخ التي اشترتها ؟

يقول الاتهام انها دست السموم الى زوجها وهو في باريس بفطائر مسمومة . ولكن أليس من المعقول اذا كانت مدام لافارج تريد قتل زوجها ان تصحبه في سفره ومن ثم تنفذ جريمتها حيث لا الاطباء يعرفون المجني عليه ، وحيث يسهل اخفاء آثار الجريمة ؟ اضف الى ذلك انها كتبت اليه خطاباً تطلب فيه ان يدعو احد اصدقائه لمشاطرته في اكل الفطائر ، فان كانت من الحمق بحيث يقدم الدليل الكتابي على جريمتها ، وهل كانت تريد ان تقتل احد الاصدقاء ايضاً ؟ واعظم من ذلك انه لم يثبت ان لافارج قد ظهرت عليه في باريس اعراض التسمم حيث لم يدع احدا من الاطباء لمشاهدته . ولا تحدث الفطائر

المسمومة ولم تحتال قط

[illegible] دة [illegible] وهذه تنحصر في اقوال الا [illegible] وان شتى استقدمتها مدام لافرج في اوائل [illegible] حصولها . وقد شهدت هذه الاشخاص ان [illegible] التي [illegible] من [illegible] عند [illegible] في ١٠ [illegible] وان [illegible] في يوم ١٥ يناير [illegible] مسحوقاً ابيض في القدح من [illegible] ومن [illegible] الزرنيخ

وقد اكتشفت مدام لافرج في الرد على ذلك ان [illegible] الشاهدة [illegible] المسحوق الابيض لم يكن الا [illegible]

واما عن [illegible] الام من [illegible] في [illegible] : [illegible] والجثة [illegible] ولان مدام لافرج [illegible] . قد حدث في [illegible] من [illegible] وقد [illegible] مدام [illegible] في [illegible] عجيبة . وفي جثته لا [illegible] ولا [illegible] انها [illegible] من [illegible] الفقيرين [illegible] بين جدران منزل واحد ولا [illegible] المسودة [illegible]

غير انه يقال في الرد على ذلك ان لافرج ولم يكن [illegible] كرهته فقد كان يحبها [illegible] من [illegible] في المنزل [illegible] وهذا ما [illegible] حينما تستقدم الام [illegible] واما في [illegible] المنزل فقد كانوا يحبونها ويخلصون لها ، وقد ظهر هذا العطف والاخلاص بعد [illegible] ولاسيما من [illegible] التي تبعتها الى سجنها [illegible] من اقوال الشهود ما يؤيد قول [illegible] في [illegible] ذلك في [illegible] التي كتبتها الى [illegible] الثلاثة [illegible] من [illegible] ان مدام لافرج كانت تهوى رجلا آخر [illegible] الى ان [illegible] الجريمة [illegible] بل ان الاتهام لم يحاول ان يفحص هذا المرض [illegible] الذي [illegible] وقدموها الى [illegible] في [illegible] فلا تمكن ان [illegible] مدام لافرج [illegible] عن [illegible] قد [illegible] لا [illegible] قد [illegible]

واما البحث او الصفحة الادبية بصورة اخرى فهو فرض عند الدفاع لا كثر ما يجد لاتهام اذ كيف ينسب السيدة الى زوجة توحي اخرى الى زوجها في اول وصية كتبها وضحى معظم ثروتها في سعة البر للانداء من العسر الى . ثم الحرد نفسها من فئة ما لم تفقد سمعته وذكراه بعد موته ان السيدة دبويه هي الزوجة عند الاستحالة .

* * *

والخلاصة انه لم يوجد بين الادلة التي قدمها الاتهام على مدام لافارج ما يقطع او يرجح دائما .

لم يكن لمدام لافارج باعث من المال او القوى يدفعها الى التخلص من زوجها .

ان امرأة تقتل مدفوعة بعامل الجشع تخفي في ذلك عادة حتى آخر ما يشجعها على ذلك .

ولم يثبت قط ان مدام لافارج كانت زوجة خائنة

وان امرأة تقتل مدفوعة بعامل الجنس لا تجرد نفسها كما فعلت فتفقد ذكرى ذلك الذي اثرت به

وان الهوة التي تفصل بين زوجين تنازع تراتيب اهوائهما وعواطفهما تزول عادة بتأثير الحياة المشتركة المستمرة .

وان فتاة ذكية كمدام لافارج تعرف جيدا ان موت زوجها يجردها من العقد الادبي الوحيد الذي بقي لها في الحياة

وان حادث السم تضارب شأنه الاراء في بلد تعود ... لا تزال مضطرب اليوم بشأن المباحث العلمية . وان الاتهام لا يستطيع ان يجد رفقة التجربة . ولا يستطيع الاعتماد الا على شهادة فتاة حديثة السن لا الاتهمة وان ... كل ذلك يدحض من فكرة الادانة . ويعضد فكرة البراءة .

٣

هذه هي حجج الاتهام وحجج الدفاع في تلك المسألة الشهيرة سردناها كما يسرد القاضي المحقق ملخص التحقيقات والادلة . وفي النهاية حكمت بالبراءة اولى

غير ان محكمة جنايات كوريز لم تر ذلك الرأي . فبعد ان استغرق نظر القضية سبعة عشر جلسة كانت مثار الاهتمام العظيم في ذلك الحين ، وبعد ان استمعت اقوال

القضاء لها ، وقال ، ولا تنسوا أونا من عار [illegible] وجهة طرح رئيس المحكمة على هيئة
المحلفين في يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٤٠ السؤال الآتي :
« هل كانت ماري فورتونيه كابيل ارملة المسيو لافارج مذنبة في شهري ديسمبر
ويناير الماضيين بواسطة مواد يمكن ان تحدث الموت وقد احدثته فعلاً ؟ »
فتداول المحلفون واصدروا قرارا أدانوها بالتهمة مع وجود الظروف المخففة . ثم
اصدرت المحكمة قرارها وقضت على مدام لافارج بالاشغال الشاقة المؤبدة والعرض
للجمهور في ساحة مدينة تول .

* * *

يرى بعض الذين تناولوا دراسة مدام لافارج ان المحلفين قد تأثروا بأمور كلها
خارج عن القضية الاصلية .
اولها تهمة السرقة ، فقد ذكرنا ان مدام لافارج اتهمت اثناء التحقيق بسرقة
جواهر صديقتها الآنسة نيكولاي . وظروف هذه التهمة هي ان الآنسة نيكولاي
دعت صديقتها ماري كابيل الى حفلة راقصة في [illegible] في شهر [illegible] سنة ١٨٣٨ اي
قبل ان تعقد زواجها بلافارج [illegible] . وقدمت ماري كابيل الصرف بضعة ايام
في [illegible] ، وفي اليوم التالي فقدت الآنسة نيكولاي عقداً من الماس يبلغ ثمنه نحو
عشرة آلاف فرنك ولم يعرف السارق . [illegible] وقدمت [illegible] وقبض على مدام
لافارج ، وفتش مسكنها ووجد العقد [illegible] وضبط ، ووجهت الى مدام لافارج تهمة
السرقة ايضاً ، وحوكمت عنها اولا امام محكمة [illegible] . وكان دفاعها ان العقد
اهدته صديقتها ، لتبيعه [illegible] لتتحصل من زوجها على [illegible] ولم تأخذ المحكمة
بدفاعها وقضت عليها بالحبس سنتين في [illegible] سنة ١٨٤٠ ، وايدت الحكم من
محكمة تول .
وثانيها ان المدعي العمومي ديكو وجه الى المحلفين ما يأتي : « هل يكون ان
يعتقد احد من المحلفين [illegible] او اذا [illegible] الامر بامرأة ذات مركز اجتماعي
كهذه [illegible] الامر [illegible] » وقد كان لهذه العبارة على
رأي الاعتقاد [illegible] في نفوس المحلفين بالنسبة لمدام لافارج .

ولم تستفد مدام لافارج من النقض شيئاً سوى ان اعفيت من الشغل الشاق الذي نص عليه الحكم .

* * *

قابلت مدام لافارج الحكم عليها بشجاعة وجلد . وكانت اثناء محاكمتها موضع اهتمام وعطف كبير . وكانت اثناء سجنها في تيل تتلقى نحو ستة آلاف رسالة في العام بعضها رسائل تشفق ، ورسائل غرامية ، وعروض زواج . وطلبات زواج . وكان من بين مراسليها بعض اقطاب الادب والبيان في ذلك العصر مثل اسكندر دوماس الكبير ، ولامرتين ، والاب لاكوردير ، والعلامة راسباي .

وقد اطالت المحنة ايام مدام لافارج واذكت خيالها وبيانها فكتبت في سجنها ثلاثة كتب تفيض بلاغة وروعة هي « ساعات السجن » و « المذكرات » و « الرسائل » .

وفي سنة ١٨٥٢ كتبت الى البرنس لويس نابوليون رئيس الجمهورية خطاباً تطلب اليه فيه اخراجها من السجن . وفي هذا الخطاب فقرات مؤثرة نقتطف منها :

« اني بريئة يا مولاي ! لقد قضيت اثني عشر عاماً من عدالة الناس ولكنك انت تمثل العدالة الالهية في الدنيا . لست التمس حرية السعادة . وانما التمس الوسيلة لارضاء الله حتى ... ان كل ما احب ... عليه فقط ان نجد ... ان مثل هذا لاسمي يا مولاي ! واني لأضع رسالتي اليك ... مذكرى ... ويشرفه ... الامة ... »

فقضى الرئيس لويس نابوليون ... وعادت الى جلانديه تقيم في منزل زوجها الذي هجرته اثنى عشرة عاماً . حتى ان المحنة وصروف الزمن لم تذهب بسوء الظن من قلوب أهل القرية فكثيراً ما كانت تسمع من حولها اذا خرجت الى التريض من يصيح : « السارقة ، والسممة » .

ولم تنعم مدام لافارج بحريتها طويلاً فتوفيت بعد بضعة اشهر من اطلاق سراحها . ولما شعرت بدنو اجلها جمعت حول فراشها اوفى اصدقائها واكدت امامهم وامام قسيسها الذي تقدم ليلقي عليها الصلوات الاخيرة انها بريئة من دم زوجها وقالت : « اني سأتقدم امام الله للمحاكمة . واني امامه اؤكد براءتي . وهذه ايضاً حجة قوية

ان تقوم بأعمالها .

* * *

كانت قضية مدام لافارج فاتحة شهرة لاشو وبداية مجده ، ولم يتأثر احد بأكثر منه لهذه المرأة الخلابة التي كانت صفاتها السحرية تجذب اليها كل من يقترب منها ، ودفع عنها بكل ما اوتي من قوة جنان ومنطق ودلاقة والحق في محاولة القادحة ضمروا وأرقام من بلاغته الساحرة ، غاية عند ذلك البلاغة التي ما زالت مضرب الامثال في فرنسا .

وبلغ من تأثر لاشو مصابها وعطفه عليها انه لم ينقطع عن مراسلتها انقطاعاً طويلاً ، وكان يزورها في سجنها كلما سمحت الفرصة بل لقد حدثته نفسه ذات مرة حينما نقلت مدام لافارج الى سجن الجنوب ان ينقل مركز اعماله الى مونبلييه وان يقيم ايضاً في حدود السجن هناك . ولكنها حملته على العدول عن فكرته .

وكان لاشو يثق ببراءة موكلته ثقة تبلغ حد الايمان ، ولم يعدل عن هذا الاعتقاد قط وفي طوال الاعوام [illegible] التي قضتها تلك المرأة التعسة ، وقلما كان يجرؤ احد ان يذكر اسمها امامه لما كان يعرف من تأثره وشجنه لذكراها .

ولما توفيت ماري كابل في سنة ١٨٥٢ لم ينقطع لاشو مدى [illegible] عن ان يزور قبرها ويضع الازهار عليه .